نظريات التغير الدائرية

منيرة بنت عبد الله الدريويش

قسم علم الإجتماع
كلية الآداب، جامعة الملك سعود

جمع ٦١٧: المجتمع العربي السعودي التغير و التحديث

٢٠٢١، مارس

المواضيع	الصفحة
المقدمة	٤
نظرية المفكر العربي ابن خلدون الدائرية	٥
نظرية المفكر الإيطالي فيكو الدائرية	٨
نظرية المفكر الألماني أوسوالد سبينجلر	٨
نظرية الفيلسوف البريطاني آرنولد توينبي	٩
نظرية العالم الروسي بيترم سوروكن	١٠
المراجع	١١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ظهرت النظريات الدائرية بشـــكل علمي بعد الحرب العالمية الأولى، كرد فعل لنظريات التطور المســـتقيمة. وتقوم النظريات الدائرية في التغير الاجتماعي على مبدأ تشاؤمي مفاده أن الدول تسير في دائرة تنتهي بها حيث ابتدأت. و تؤمن هذه النظريات بأن دراسة الماضي بشكل متعمق و متفحص يساعدنا بشكلٍ أو بآخر على فهم حاضرنا و التنبؤ بمستقبلنا. هذا ببساطة مبدأ نظريات التغير الدائرية بشـــكلٍ عام. وقد اتجهت معظم هذه النظريات لتشـــبيه الدول و مراحل تطورها بالإنســـان و نموه من الطفولة وصـــولا للكهولة ثم الفناء الحتمي. فهي ترى أن حياة جميع الكائنات تســير بحركة منتظمة متواترة كتواتر نمو الكائن الحي، (الغريب،٢٠١٦). و لو عُدنا لإســم النظريات فهي مشـــتقة من كلمة دائرة؛ والدائرة في معجم المعاني الوســـيط تعني الحلقة، (معجم المعاني)، و بالإنجليزية Circle و الفعل منها يعني التحرك بشـــكل دائري أو في حلقة دائرية. و لو تخيلنا أن نقطة البداية في الدائرة هي الميلاد، فنقطة النهاية بها هي الموت و ميلاد حياة جديدة، (أنظر الشكل ـــــ١-). و يذكر الغريب (٢٠١٦)، بأن الإنسان لاحظ على مر العصور تماثل دورة حياة الإنسان بالمجتمع أو الدولة، فالدول تنشأ صغيرة ثم تنمو و تتطور و تزدهر و بالنهاية تتدهور و تنهار و تنحل، ثم تعود مرة أخرى للنمو و الإزدهار، و تتمايز الدول في مراحل تطورها من ناحية النظم والأنساق و الأخلاق فهي ليست واحدة في كل المراحل. و نظريات التغير الدائرية تختلف في تناولها مجريات التغير فبعضها يفسر أو يشرح ظاهرة محددة أو جانباً معينا من جوانب الحياة الاجتماعية ، و النوع الآخر يهدف لتفسير مسار التاريخ العام متناولاً جميع النظم و الأنســاق والظواهر الاجتماعية دون اســتثناء. و ســنســتعرض في الصــفحات التالية أهم النظريات الدائرية في علم الإجتماع عند ابن خلدون، فيكو، سبينجلر، توينبي و سوروكن.

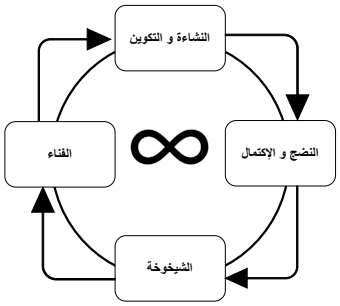

الشكل: ١

نظرية المفكر العربي ابن خلدون الدائرية ١٣٣٢-١٤٠٦

يعتبر ابن خلدون من أوائل المفكرين الذين تناولوا أحوال التغير في المجتمعات البشـــرية، فقد أتخذ قصـــور الأمراء والحكام مصـدراً لأرآئه و نظرياته. كما انعكسـت تنقلاته في أرجاء العمران البشـرية وبين القبائل البدوية على كتاباته و نتاجه الفكري و العلمي. وفسر ابن خلدون التغير من خلال نظريته الدائرية القائلة بأن المجتمع الإنساني يسير في دورات وفق خطى محددة، وعمر معين، و سمات تميز كل مرحلة عن مرحلتها السابقة، وهو ينحى بخطاه نحو سير الإنسان في نشأته و تطوره. و شبه المراحل الدورية بالأجيال الإنســـانية بأحوالها و أعمارها، حيث يبلغ عمر الجيل أربعون عاماً، و تمر الدولة بثلاثة أجيال متتابعة و تتوفى بعد قرنً و عشرون عاماً، وينشأ على أعقابها دولة أخرى، (الغريب،٢٠١٦). ويعتقد ابن خلدون أن الدورات المتتابعة هي نتيجة تصـارع البدو و الحضـر المستمر لأجل البقاء و تثبيت القوة، (الوردي، ١٩٩٤). و تبدأ الدورة في تكوينها بمطامع البدوي بالإسـتيلاء على المدينة و بعد الإسـتيلاء عليها ينغمس البدو بترف الحضـارة و يفقد عصـبيته و خشـونته، مما يُضـــعف دولتهم تدريجياً، ويجعلها مطمعاً لبدوٍ آخرين، ويســـتولون عليها،.. وهكذا تدور دائرة الدول عند ابن خلدون، (الوردي،١٩٩٤). إن دائرة الدولة عند ابن خلدون طوعية خارجة عن الإرادة البشـرية و مشـيئتها فهي تحدث بشـكل تلقائي و حتمي تماما كما يحدث مع الإنســـان في نموه وتطوره ،(الغريب،٢٠١٦). و فيما يلي ســـنتناول هذه الأطوار أو الأجيال بالتفصيل:

طور النشأة و التكوين:

و تمثل البداوة هذا الطور و أســماهم ابن خلدون الجيل الأول أو أصـــل الدولة و التحضـــر،(الغريب،٢٠١٦) . و يرى ابن خلدون أن أفراد هذا الطور تغلب عليهم الخشـونة و الصـلافة و هي الطبائع الصـحراوية التي اكتسـبوها من شـظف العيش و صـعوبة الحياة في البراري و القِفار، و من تربيتهم للأبل و رعايتهم لها. فهم يقتصـرون في قوامهم ومأكلهم و مشـربهم على الضرورات من العيش، و لم تُشبعهم الحياة لدرجة الانتقال للكماليات. و تذكر الساعاتي (٢٠٠٦)، بأن أسلوب الحياة البشرية يتوقف على أسلوب الحصول على مقومات الحياة و نوع النشاط الاقتصادي للجماعة. فالبدو في ذلك الحين قسمين، قسم يعمل في الزراعة وهم الفلاحين و هم مستقرون نوعاً ما و يسكنون بيوت الطين و الحجارة، و يعتمدون بذلك على القسم الآخر الذي يعمل في رعاية الحيوانات وهم الشـاويّة وهم يتنقلون بإسـتمرار مع مسـارحهم و يسـتقرون حيث يجدون لها الكلاء. و الإعتماد بين البدو الرحل و البدو المزارعين هو إعتمادٌ متبادل من أجل الحصول على المعاش.

و يمتاز الفرد في تلك المرحلة بالشـــجاعة و البســـالة و الولاء التام لشـــيخ القبيلة. فالنظام الأبوي هو النظام الســـائد في تلك المرحلة، (الغريب،٢٠١٦). و تبرز سمة العصبية القبلية كسمة مميزة لمرحلة النشاءة والتكوين، كونها قائمة على مبدأ الغزو بين القبائل و قاعدتها هي الغلبة للأقوى. و الجدير بالذكر أن ابن خلدون يرى ان العصبية القبلية سمة طبيعية في مرحلة البداوة وتتكون بين أفراد القبيلة الواحدة و ليس من الضـــروري أن يكونوا من نفس الأســـرة. وتؤدي العصـــبية وظيفتها الإيجابية في تماسك المجتمع البدوي وترابطه و تحدد قدرته على مواجهة العدو. فالعصبة – كما أعتقد- في نظر ابن خلدون هي المجموعة الواحدة القوية المترابطة التي تشـد بعضـها بعضـاً، كما في قول أخوة يوسـف عليه السـلام (و نحن عِصـبة)(القرآن الكريم، يوسـف: ٨). و أخيراً يرى ابن خلدون أن العصـبية كمظهر إيجابي يتلاشـى و يختفي في المجتمعات الحضـرية، حيث تحل السلطة القانونية محل السلطة الأبوية أو شيخ القبيلة. ولعل الملاحظ في وصف ابن خلدون لسمات هذه المرحلة يرى أن ترابط القبائل و عصـــبتيها و قدرتها على الســـيطرة على القبائل الأخرى تمثل طور الشـــباب في قانون الأطوار الثلاثة، بينما يمثل ضعفها و شتات أمرها طور الفناء والزوال.

طور النضج والاكتمال

وهي مرحلة الملك، وفيها تتحول البداوة إلى الحضـــارة و تتحول الخيام الوبرية للدور القوية، و يتحول شـــيخ القبيلة لنظام سياسي و حاكم و سلطة ، و يتحول البدوي الصلف للمدنية و التحضر، و يميل به الحال من البحث عن سبل العيش الضرورية للبحث عن ســـبل النعيم و الرفاه و توفير الكماليات، و من الغزو المســـتمر على القبائل للرغبة بالاســـتقرار و العيش الرغيد. و يعزو ابن خلدون هذا المظهر كنتيجة حتمية لإزدهار أحوال البدو و توفر الحاجات الأساسية و الكمالية، التي ظهرت نتيجة زيادة عدد السـكان و التخصـص و تقسـيم العمل. فتظهر في المدينة وظيفة الحداد والعسـكر والخباز و كلٌ يعمل بما وُكل به. و يذكر ابن خلدون أن توفر المصـادر الأساسية و وفرتها نقلت البدوي من مرحلة المنتج المستهلك، للمُنتج المستثمر التاجر أو (الصـنائعي). فإذا كان الإنتاج في المجتمع البدوي ذو طابع إجتماعي و التعاون والإستهلاك فيه بشكل مباشر، فإنه على عكس ذلك في المدينة، (الساعاتي،٢٠٠٦). وعليه فإن ابن خلدون يرى أن بروز مظاهر الحضارة جاء نتيجة الحاجة إليها و ينعكس هذا الرخاء الاقتصـــادي على أحوال البدو المعيشـــية فيلبســـون الحرير و الديباج و يغالون في ارتفاع المنازل و الصـــروح و يقتنون الأواني الفاخرة والنحاس، (الساعاتي،٢٠٠٦).

و تتوزع المسـؤوليات على الأفراد و على التخصـصـات، فلا يعود الفرد مسـؤولاً عن حماية قبيلته بأكملها و لم يعد مضـطراً للقتال لأجلها، فهناك من يقوم بذلك فينســـى الأفراد عهد البداوة و الخشـــونة و يفقدون شـــعور العصـــبية و يتحولون لعالة على

الدولة لحمايتهم و رعايتهم، و هذا في نظر ابن خلدون مدعاة للفشـــل و إســـتهوان للإســـتعباد و المذلة، (الغريب،٢٠١٦). و كظاهرة طبيعية، و كنتيجة لقيام المدن تظهر بعض الســمات على الأفراد كالميل للدعة و التأنق الشــديد وقلة الحركة ، مما يترك الأثر الواضـح على الأفراد و سـماتهم. و أخيراً، يرى ابن خلدون أن أمجاد الماضـي و بطولات البداوة تصـبح أمثالا و شعراً يتغنى بها مترفو هذا الجيل.

طور الهرم و الشيخوخة

وهي مرحلة الترف والنعيم أو التطور و الحضارة الاقتصادية. و كما ذكرنا في المرحلة السابقة أن الحضارة تدعو للإسترخاء والخمول الدعة و هذا يستمر في إنعكاسه على الأفراد في المرحلة الثالثة. فيلجأ بعدها صاحب السلطة "للاستظهار من أهل النجدة و يستكثر من الموالي و يصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتى يأذن الله بإنقراضها"،(الغريب،٢٠١٦،ص.٩٩). و تذكر الساعاتي (٢٠٠٦) أن الوصول لهذه المرحلة هي نتيجة الركون للحكام و الإعتماد عليهم في تدبير شؤونهم و حمايتهم، مما أســهم في إنســلاخ البدو المتحضــرين من قيم الشــجاعة و البســالة و جعلهم مجبورين علي طاعة الحكام و الإنقياد لهم. و أخيراً، يرى ابن خلدون أنه قد يأتي ما يؤخر زوال الدولة كأن يقيض الله لها حاكماً ينتشلها من حوض الإنهزام و التدهور و يعيدها لشبابها و زهوتها مرة أخرى.

النقد الموجه للنظرية:

يذكر الغريب (٢٠١٦)، بأنه وبرغم أن ابن خلدون ضــرب الكثير من الأمثلة على الأمم الســابقة التي مرت بالأطوار الثلاثة التي حددها، إلا أن نظريته لم تعد ملائمة لطبيعة المجتمعات الحالية ، بالإضـــافة إلى ذلك فإن الدول و المجتمعات تتباين في تطورها و أسـباب تدهورها و سـقوطها. و أعتقد من وجهة نظري أن ابن خلدون أصـاب في وصـف الإنتقال من حياة البادية للحضـــارة و في ذكره ان دعوى التحضـــر إســـتجابة للحاجة الاقتصـــادية. والمأخذ على هذه النظرية يكمن في حتمية حدوث السـمات السـلبية المرافقة للتطور والتحضـر. فليسـت كل مظاهر الترف و الرفاهية مدعاة للكسـل و الدعة، بل على العكس قد تكون سـبيلاً للإختراعات و الإكتشـافات التي تسـهم في إزدهار الدولة و تمييزها عن غيرها من الدول. فالترف يحدث نتيجة توفر الأساسيات في المجتمع، و إنتاج الكماليات وسهولة شرائها وتداولها، وهذا يعني تنوع إقتصادي. والتنوع الاقتصادي يتيح التنويع و الابتكار في مجال قطاع الأعمال، كما يســهم في زيادة توظيف الأيدي العاملة و رفع نســبة المشــاركة الاقتصــادية لأفراد المجتمع.

نظرية المفكر الإيطالي فيكو الدائرية ١٦٦٨ ــ ١٧٤٤

Giambattista Vico

و تسمى أيضا بقانون النكوص، بسبب منطقها الذي يرى أن المجتمعات الإنسانية تسير بشكلٍ دائري، وأنها لا تستقر عند مرحلةٍ معينة و في حال استقرت فإنها تعود بشكلٍ قهري للطور الأول و لكن بصورة أكثر رقي ،(الغريب،٢٠١٦). و يرى فيكو أن المجتمع الإنساني يمر بثلاثة مراحل أساسية تبدأ بالمرحلة الدينية؛ حيث تتميز بإرجاع كل شيء للدين و تفسيره بأسباب دينية و غيبية. ثم تأتي بعد ذلك المرحلة البطولية؛ والتي تتميز بتعظيم الشرف و المغامرة و تطور الفلسفة والفنون والآداب العامة، و يضيف إلى أن الأرستقراطية السياسية المتمثلة بسيادة النظام الأبوي قد ظهرت في هذه المرحلة. كما يؤمن فيكو بأن المجتمعات ستصل أخيراً، لمرحلة الإنسانية وهي المرحلة التي يتمتع بها الأفراد بالحرية السياسية والديموقراطية ، و سيادة القوانين و الأنظمة المدنية، (الغريب،٢٠١٦).

نظرية المفكر الألماني أوسوالد سبينجلر الدائرية ١٨٨٠ ــ ١٩٣٦

Oswald Arnold Gottfried Spengler

درس سبينجلر ثمانية حضارات وهي: (المصرية، الهندية، الصينية، الكلاسيكية ، العربية، و الروسية؛ كما درس الثقافات العربية، والمايا، وثقافة بلاد ما بين النهرين)، محاولاً التعرف على أسباب تطور و تراجع الحضارات و بيّن أنها جميعها مرت بمراحل النشأة و النمو، و النضج ثم الإنحدار، أو مراحل الفصول الأربعة، (الغريب،٢٠١٦). ويصف سبينجلر التاريخ "بالمسرحية المتعددة الثقافات البارزة أو العظيمة"، فلكل ثقافة نقطة بداية ونهاية و لكل ثقافة دورة حياة معينة تبدأ بالولادة و تنتهي بالموت، (تالش،٢٠١٥). و قد أعطى الحضارات أعمارا تتفاوت بين الألف سنة و أقل . وقد أعتبر سبينجلر الموت الحتمي مصير مرحلة الحضارة في المجتمعات المدنية وعبر عنه بالجمود الذي يلي الإبداع الفكري. و على خلاف توينبي- كما سنرى لاحقاً- ، يرى سبينجلر أن الحضارات لا تنهار بالضرورة بفعل الحروب و الغزوات بل قد تشيخ نتيجة عوامل داخلية أو ما أسماها بالمدنية أو الحضارة. و تنبأ في كتابه الشهير إنهيار الغرب The Decline of the West، بانهيار الحضارة الغربية كونها نشأت منذ أكثر من ٩٠٠ عام ، فهي وشيكة السقوط و الانهيار. و أعتبر الكثير من النقاد أن نظرية سبينجلر لا تقوم على أساس علمي ، و أنه قد وضعها بناء على تأثره بالفلسفة الألمانية أبان الحرب العالمية الثانية، (الغريب،٢٠١٦).

نظرية الفيلسوف البريطاني أرنولد توينبي ١٨٨٩ – ١٩٧٥

Arnold Toynbee

كما سبينجلر، ألف توينبي كتاب "دراسة التاريخ"، في إثني عشرة مجلداً، للبحث عن أسباب إرتقاء و إنحدار الحضارات، كما درس ٢٦ حضارة في مختلف أرجاء العالم، على أساس فرضية التحدي – و الإستجابة Challenge and Respnse وتوصل إلى أن نمو المجتمعات الإنسانية هو نتيجة لإستجابة الأقليات المختارة نحو التحديات الأخلاقية و الدينية الجديدة بشكل خلاق و مبدع، (تالش،٢٠١٥). وعلى العكس من ذلك يحدث الإنحدار نتيجة فقدان المرونة في التعامل و التعاطي مع التحديات الجديدة التي قد تواجهها المجتمعات الإنسانية. و يرى توينبي أن الانهيار الحضاري يبدأ بإنخفاض الطاقة الإبداعية عند الأقلية المبدعة في المجتمعات الإنسانية، مما ينتج عنه تحول الأقلية المبدعة لأقلية مسيطرة. فتقوم أغلبية المجتمع بسحب الولاء من الأقلية المسيطرة و عدم محاكاتها وتقليدها، فينتج عنه إستتباع الثقة بين أقلية المجتمع الحاكمة و أغلبيته المحكومة مما يتسبب بضياع وحدة المجتمع و إنهياره، (الغريب،٢٠١٦). ويرى توينبي أن المجتمعات الإنسانية تتغير وتنتقل لحالة جديدة، في حال تعرضها للأزمات و إختلال توازنها. و أخيراً، يعتقد توينبي أن الحضارات تتغير نتيجة أسلوبها في مواجهة التحديات سواءاً كانت هذه التحديات طبيعية كالفيضانات أو الزلازل، أو كانت من صنع البشر كالمجاعات و الحروب، و أن هذه المجتمعات تمر خلال المواجهة بمراحل مرتبطة بإرادة الإنسان وهي بين الميلاد ، النمو، الإضمحلال ، التفكك ، أوالتدمير . وهذا يعتمد على ردة الفعل، فإذا كانت إستجابة الصفوة أو الأقلية عنيفة فإن النتيجة هي تدمير الشعوب ، أما إذا كانت الأقلية الصفوية ذكية في إستجابتها فإن المجتمعات ستتغير. و يشدد توينبي على أهمية الطاقة الكامنة للفرد أو الدافع الإيجابي فالأفراد المبدعين، والقادة الملهمين هم قارب النجاة للمجتمعات الإنسانية، عن طريق وضع الأساليب المثلى التي تحاكيها مجتمعاتها، و تقودها بذلك للنمو والتطور. و أخيراً، يؤمن توينبي أن الحضارة الغربية تتجه للإنحدار برغم أنه في أوج حضارتها و ذلك بسبب عدم قدرتها على مواجهة التحديات الجديدة و مواصلة الصعود. وعلى عكس الحضارات الأخرى فإن التذبذب في مواجهة التحديات في مرحلة النضوج ساعدها في التطور والنمو، (الغريب،٢٠١٦).

نظرية العالم الروسي بيترم سوروكن الدائرية ١٨٨٩ ــ ١٩٦٨

Pitrim Sorokin

يرفض سوروكن تسمية نظريته بالدائرية، كما يرفض فرضيات ظهور وسقوط الحضارات و الثقافات أو الولادة والموت. و تتمحور نظريته حول فكرة أن كل ظاهرة إجتماعية أو ثقافية تنتقل من حالة إلى أخرى، وتعبر حالة الإنتقال عن (إتجاه) التغير، الذي يمكن أن يكون خطياً أو دائرياً أو متكرراً بأشكال مختلفة كالحلزونية و الفرعية. و أن التغير الدائري هو أكثر الإتجاهات حدوثاً في المجتمعات الإنسانية. و ينفي سوروكن مبدأ الدائرية أو الخطية المطلقة، بينما يرى إمكانية حدوث التغير الخطي لفترات محددة و إن كانت متذبذبة الطول، (تالش،٢٠١٥). و يضيف الدكتور الغريب(٢٠١٦)، بأن التغير عند سوروكن يأخذ شكل التقدم الطردي إتجاه معين، وفق خط مستقيم، لفترة محددة ثم ما يلبث أن ينعكس هذا الخط المستقيم و لكن بصورة غير منتظمة، حتى يصل لحد معين ثم يرتد مرة أخرى في الإتجاه المعاكس؛ و هكذا يكون نمط التغير عبارة عن تحول بين ما أسماه سوروكن المرحلة الفكرية و المرحلة الحسية. و يعتقد سوروكن أنه و برغم أن التغيرات تسير في إتجاه شبه الدائرة إلا أنها لابد أن تنتهي في نقطة معينة، حيث تبدأ دورتها في التغير من جديد، (الغريب،٢٠١٦). حيث يرى أن المجتمع يتغير بشكل متذبذب في فترات غير منتظمة بين ثلاث مراحل وهي:

1 - المرحلة الفكرية، أو مرحلة الثقافة الدينية و حكم الأقلية الثيوقراطي.

2 - المرحلة الحسية المادية، أو المرحلة الفلسفية الإمبريقية؛ و فيها ينغمس المجمع بالماديات الحسية و يتميز بظهور الأدب الواقعي.

3 - المرحلة الروحية المثالية ويتم التوفيق فيها بين المرحلتين السابقتين حيث تظهر فيها الحكومات الديموقراطية و الفلسفة المثالية و تنتقل المعرفة من المرحلة الحسية للمرحلة العقلية.

و يعتقد سوروكن أن الثقافة الغربية وصلت لذروة المرحلة المادية و هي في طريقها للمرحلة الروحية المثالية، ويرى أن الثقافة إذا وصلت لهده المرحلة فإنه يحدث بالمجتمع نوع من التذبذب نتيجة الملل الذي قد يشعر به الناس فيعودون للمرحلة الحسية المادية، وهكذا يكون التغير متذبذباً بين تلك المراحل الثلاث، (الغريب،٢٠١٦).

المراجع

معجم المعاني، (د.ت.). https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar

الساعاتي، سامية.(٢٠٠٦). *ابن خلدون مبدعا، قراءه جديدة لفكره و منهجه في علم الاجتماع*. المجلس الأعلى للثقافة.

الغريب، عبدالعزيز.(٢٠١٦). *التغير الاجتماعي والثقافي مع نماذج تطبيقية من المجتمع السعودي*. دار الزهراء للنشر والتوزيع.

الوردي، علي.(١٩٩٤).*منطق ابن خلدون في ضوء حضارته و شخصيته(ط.٢). دار كوفان للنشر.*

تالش، محمد. (٢٠١٥). قراءة المجتمعات. مكتبة الملك فهد الوطنية.